

النسق المضمّر للصراع الهوياتي في رواية "غريب" لمحمد جربوعة

The Implicit Pattern of identity conflict in the novel "Gharib" by
Mohamed Jarboua

بهجة أوموادن *

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة امحمد بوقرة، بومرداس - الجزائر

b.oumouadene@univ-boumerdes.dz

تاريخ النشر:

2025-06-03

تاريخ القبول:

2025-03-24

تاريخ الإرسال:

2024-08-23

ملخص: ترمي هذه الدراسة إلى الكشف عن أبعاد النسق المضمّر للصراع الهوياتي في رواية "غريب" للروائي الجزائري محمد جربوعة، وهي أحد الأعمال المميزة في طرحها لمسألة الهوية، وفق ما وفرته من أساليب سردية وطرق جمالية متنوعة.

تحاول هذه الدراسة طرح مجموعة من التساؤلات عن المعاني المتخفية وراء الصراعات داخل النص الروائي باعتباره مننوج منظومة اجتماعية وثقافية، وتكشف عن جوانب خفية للصراع بين أطراف متعدّدة المشارب، وهو دعوة منا إلى إعادة النهوض بالفكر وإخراجه من الانتماءات المجزأة، وإعادة ترتيب مواقف الفرد الجزائري ترتباً سليماً اتجاه مفهومه للهوية الدينية حتى يكون صاحب منظومة فكرية متناسقة مبنية على الانفتاح والحرية واحترام الآخر.

كلمات مفتاحية: الهوية؛ غريب؛ الصراع؛ النسق المضمّر.

Abstract: This study aims to reveal the dimensions of the implicit pattern of identity conflict in the novel "Stranger" by the Algerian novelist Mohamed Jarboua, which is one of the distinguished works in presenting the issue of identity, according to the various narrative methods and aesthetic methods it provides.

This study attempts to raise a set of questions about the meanings hidden behind the conflicts within the fictional text as it is the product of a social and cultural system,

* المؤلف المرسل

and reveals hidden aspects of the religious conflict between parties of various stripes. It is a call from us to re-advance thought and remove it from fragmented affiliations, and to rearrange the positions of the Algerian individual in order. His concept of religious identity is sound, so that he has a consistent intellectual system based on openness, freedom, and respect for others.

Keywords: identity; Gharib; Conflict; The Implicit Pattern.

1- المقدمة: استطاعت النصوص السردية الحداثية، أن تتغل المعطيات الثقافية للمجتمعات، وترصد الواقع بكل ما يحويه من تناقضات وصراعات متعدّدة لأشكال الحياة، في خطاب مضمّر يكشف الأوجه الناتجة عن التلاقي والانخراط في الاجتماع الإنساني، ف "القصص ما بعد الحداثي يحاول أن يقرأ الواقع كما هو بكلّ تشظيه وتناقضاته، وينقل صراعات الشخصيات الفكرية والنفسية"¹، ويبرز حدة التناحر بين أطراف عديدة، تشابكت لتخوض صراعات أشبه بالحروب.

لقد أعادت روايات ما بعد الحداثة تنظيم المجتمع من خلال انصهارها مع مختلف نظمه السياسية والاجتماعية والدينية، وراحت تبحث عن فضاءات تجسد التحولات التي شهدتها الواقع، فكان لها أن تكتب عن الأقليات وتبحث في مسائل الهوية والدين وعبر سرود تضمّر الكثير من الأنساق برزت روايات عربية وجزائرية عالجت قضايا مركزية حاولت أن تحاكي الواقع، فبرز في الساحة الأدبية الجزائرية عدد من الروائيين الذين خاضوا في هموم الحياة الاجتماعية وأزماتها، وما يركد في المجتمع من صراعات، وما نتج عنها من تسلط واستبداد، فجاءت نصوصهم مؤنّثة بأنساق ثقافية مضمّرة واسعة الأبعاد، تخفي في ثناياها مختلف الأنظمة الفكرية التي تؤسس للتناحرات. ولعل محمد جربوعة في طليعة الروائيين الجزائريين الشباب الذين احتوا هموم وآلام المجتمع وتناقضاته، وتمثّل روايته "غريب" نموذجاً للصراع بين أفراد المجتمع الواحد، وتكشف عن أوجه متباينة لذوات جزائرية، تتعالق مستوياتها وهوياتها ووعياها، ما نتج عنها صلات سلبية جسّدت كلّ المتناقضات بين "الأنا" الضائعة و"الآخر" المترمّت، بين

الواقع المعاش الذي فرض عبر التسلط وبين عالم الأحلام الذي يسعى الفرد لتحقيقه، وفي "هذه الضدية ينطوي هذا التحديد على التقليل من قيمة الآخر، وإعلاء قيمة الذات أو الهوية"²، فيسعى كل طرف محاربة "الآخر" بكل ما يملكه من وسائل، وما هذا الآخر هنا سوى ذوات جزائرية في نفس الوطن ونفس الأرض ونفس العائلة، إنها أزمة الإنسان الجزائري في بلاده، ومحصلة إحصائية لممارسات المجتمع المبنية على العدائية المطلقة والتصادم مع الآخر المختلف.

سنحاول في هذه الدراسة تقصي أبعاد الصراع الهوياتي بين ذوات جزائرية متعصبة لذاتها ومنتسلطة على كل من يخالفها حد التطرف والتصفية الجسدية، وتبرز العلاقة المعقدة بين الأطراف لتصبح إشكالية تترك المجتمع الجزائري المسلم وتضرب قيمه، خاصة وأنها سلوكيات دخيلة على هذا المجتمع، نمت وتطورت لأسباب إيديولوجية وفكرية، ومن هنا يأتي الحديث عن أهميه هذه الدراسة من خلال رصد أشكال الصراع الهوياتي القائم على "سحق الهوية الإسلامية"، والوقوف على العديد من الحقائق التي تفسر العلاقة الجدلية بين أطراف متباينة، أسست لعلاقات سلبية قضت على نسيج المجتمع وضمان استقراره، وهو دعوة منا إلى ضرورة الحوار والتعايش بين أفراد المجتمع الواحد، لتحقيق التجانس والتوافق الفكري والايديولوجي، والخروج عن سلطة الأحكام الجاهزة ضد الآخر وتقبل أفكاره واختياراته، وهو ما يضمن استمرارية الأمة واستقرارها. استندنا في تحليلنا إلى آليات النقد الثقافي وما أتاحه من أدوات سنحت لنا الوقوف على الرؤى والتصورات المضمرة في الرواية، ورصد الأنساق المتضادة والمخالفة لبعضها البعض، حيث تم تمريرها بنجاح، فما هي أشكال الصراع المجسدة في الرواية؟ ما العلاقة التي تربط الجزائري بأخيه الجزائري المختلف عنه إيديولوجيا ودينيا؟ كيف جسّد الروائي مرجعيات وأبعاد الصراع بين الطرفين؟ ما الأنساق المضمرة وراء الصراع الايديولوجي والديني؟

2- السياق الثقافي لرواية "غريب": صدرت الرواية عن دار اليقين بجدة- السعودية سنة 2003، ويمكن أن نصنفها ضمن التوجه التراثي المحافظ والمدافع عن الهوية الإسلامية، فلا عجب فكل روايات محمد جربوعة من تقديم الداعية "عائض القرني"، تؤسس للدفاع عن مقوّمات الشخصية الإسلامية، لذلك كانت منطلق مشاريعه الروائية، يقف بجانب الذوات التي تتمسك بهويتها الدينية رغم تسلط الآخر، وفي هذا التسلط يكمن عمق الهوية الإسلامية.

تؤرخ رواية "غريب" لفترة حاسمة من تاريخ الجزائر، لكن الروائي يبدو غامضاً في تقصي الوضع السياسي ما عدا مؤشراً واحداً وهو تضارب التوجهات الدينية، ما يجعلنا نحيل الرواية إلى العشرية السوداء رغم أنّ الروائي لا يصرح بالأزمة ولم يغص في جذورها، بل اكتفى برصد الصراع الإيديولوجي والديني وما نجم عنهما من أسلبة الذوات وتشتتها، فالبطل الطفل "غريب" مثال حي للذات المؤسّلة المشتتة، فمن جهة نجد خاله الملحد الذي فرّقه عن أبيه المسلم، يمارس عليه ضغوطات رهيبة حتى يتراجع عن دينه الإسلامي، ومن جهة أخرى يعيش الطفل على ذكرى أبيه المسلم ويحن إليه، إذ يرى فيه المثل الأعلى، وبين هذا وذاك يتشتت الطفل ويسلب منه وجوده.

يمثل الدين مركز الصراع في الرواية كونه النواة الخفية والمحركة للجماعات، لذلك كان دوماً العنصر المستهدف في الحروب والصراعات، فقد بدا واضحاً أنّه من يكسب الصراع يسيطر على الدين، وعبره حاول الروائي أن يبرز مختلف الظواهر الشائكة التي يعانيها المسلم في وطنه، فوجّه سهام النقد إلى من يكنّ العداء للإسلام عبر شخوص الرواية ونقاشاتها وصراعاتها، إنّ الذوات الجزائرية في هذه الرواية تكشف وجهاً من طبيعة العلاقة المتباينة بينها، وتبرز التناقضات الثقافية والإيديولوجية، وتبيّن الهوة بين التناحرات البشرية حتى داخل الوطن الواحد، أين لا يملك الضعيف قدرة على المواجهة والتحرّر من سلطة الآخر.

3-المضمر في الصراع الهوياتي:

1.3 العنوان والذات المؤسسية: لاريب في أنّ الروائي قد اختار عنوانا مليئا بقهر المجتمع وما يحيط به من صراعات، تضافرت فيه أبعاد تنشئة الذات واصطدامها بالآخر، فغدا عالما مليئا بالتناقضات واللاتوازن، وشكل علاقة تقابلية: الذات (الأنا) /الغير (الآخر)، ووضعنا في كفة وجود "أنا" بتمثلها الحضور في عالم الوجود وتمركزها ضمن رؤية غير واضحة لآخر لا تتوازن معه.

جاء عنوان الرواية "غريب" نكرة يحمل أنساقا ثقافية تجسّد "الأنا" الضائعة في علاقتها مع الجماعة، يطرح جملة من التساؤلات ترتبط بالهوية كونها مركز الوجود، وتندس في ثناياه أسئلة كثيرة تتعلق بالأسباب والدوافع التي جعلت "الأنا" في صراع مع انتمائها، تتساح ضمنه دلالات متعدّدة منها: الرجل ليس من القوم، البعيد عن وطنه، الغامض من الكلام³. وتتعالى في ذهن المتلقي كل "صفات الغربة"، وما تحمله من تشتت الذات وضياها، وباقتحام عالم السرد، يصل القارئ عند: "غريب كلّ يا حبيبي"⁴، فنثبت الاسمية ويتحقق وجود "ذات" باسم "غريب"، ويتأجج الصراع الهوياتي عبر تتالي الدوال وتتفجر أزمة الوجود والهوية عند "أمي لماذا سميتوني غريبا"⁵ فيخوض الطفل "غريب" حربا مع محيطه بكل تناقضاته التي تحاصره، وتحوم في رأسه أسئلة كثيرة اصطدمت فيها هويته الدينية مع خاله: الآخر المختلف عنه: "لماذا يثور أخوالي على كلّ ما علمني أبي من قيم؟ لماذا يستهزئون بصلاتي ويسخرون من قراءتي القرآن"⁶. ويحاول الصبي فهم الآخر الذي يلغي هويته ويجعله كائنا دونيا ومهمشا إلا أنه يفشل ويبقى حبيس هذا الصراع، فيدخل في عزلة وانطواء، لقد "صار مدمنا لهذا الهروب من واقعه"⁷ لكنه بقي في "طريق الله تعالى"⁸، محافظا على دينه الإسلامي، وفي هذا المنعطف تتضح الممارسة الروائية كنسق بنائي للمجتمع فمن صلاحياتها الدفاع عن الهوية الإسلامية.

يبرز الروائي جوانب الهوية الدينية للطفل من خلال ملامح رئيسية كالصلاة وقراءة القرآن ويجعل عنصر التنشئة الأبوية أساس تأسيس هويته، ورغم أنه قد فارق والده وهو لا يتجاوز سبع سنوات، ورغم حصار خاله له، إلا أنه بقي على عهد أبيه يتذكره مع كل سلوك يقدم عليه: "ويرتفع الصوت العتيق الذي كان يعرفه منذ كان مع أبيه... الله أكبر... الله أكبر... ومن بعيد رمق المئذنة ... وقام ليتوضأ ويصلي المغرب"⁹. وتستمر هذه السلوكيات إلى فترة شبابه، فينشأ شابا ملتزما صاحب أخلاق وشهامة، يشهد له كل من يعرفه بالورع والرزانة، لقد أصبح نسخة عن أبيه، وبهذا يقرّ الروائي بمركزية الأب ونسقه المسيطر على الطفل.

ومن جهة أخرى نرى بأن الروائي قد عمل على تشكيل سلوكيات "غريب" بدقة، فاختر له تصرفات تومئ بالوقار والتريث والحكمة، وتبرز بموجبها عمق المنظومة الهوياتية للدين الإسلامي القائم على الحق والعدل والصبر، فقد اصطف للصبي -رغم صغره- صفات العظام، تختزن فيها شحنات روحية تخرج عن ظلم الآخر وتسلمته وحقده لتؤسس لـ "غريب" وجودا متميّا، وجود ذات توازي حقيقة الدين الإسلامي المبني على التوازن وعدم هضم الآخر، أهله لأنه يكون الدين الأكمل والأمثل.

2.3 النسق الأبوي: ركّز الروائي على النسق الأبوي الذي يأتي في طليعة النظام الهوياتي لشخصية "غريب"، به يفتتح مشروعه، كون الأبوية مركز النظام الاجتماعي، واتخذت شكلا محدّدا ومميّزا في المجتمع العربي الإسلامي عامة وفي الجزائر خاصة، والذي يجعل من الأب "مركزا" والأم "هامشا"، فالأب محور الوجود له يرجع كلّ شيء بدءا من لحظة إعلان الانتساب، وما الطفل "غريب" سوى شخصية أبوية بامتياز، فيها إقصاء لوجود الأم رغم أنّه كبر معها بعيدا عن أبيه الذي فارقه منذ كان طفلا، وهو ما يعني أنّ الروائي اختار لأن يؤسس لثقافة النظام الأبوي، يقرّ فيها بمركزية الذكر الموروثة ويعلي من شأنها، وفي هذه المساحة يتحوّل "غريب" إلى "الأب الغائب الحاضر" لما يحمله من روح موازية للنسق الأبوي: "يتقمصه ... يتداخل به، فينطلق

بلسانه ويتصرف تصرفه¹⁰. ومن هذه الذات يستعير روح الصبر والصمود ويبني بها طفولته المشتتة، فهو يتذكر أباه رجلا فحلا "احتفظ ... في قلبه بإيمانه"¹¹. ولهذا قاوم "غريب" خاله واحتفظ بالنسق الأبوي، فقد "كان الفارق بين أبيه وخاله كبيرا فارقا بين الطهر واللوثه"¹².

وإذا تأملنا في الصفات التي اختارها الروائي للأب، نجد أنه قد أضفى عليه "هالة من القداسة"، فاصطفى له من الوقار والعز ما يؤهله لأن لا يشكك أحد في مركزيته، بينما الخال ألصق له كل صَوَر الانتقاص، ألغت فيه ميزة أن يكون النسق الذي يؤسس لبناء ذات الطفل، فهو لا يمكن أن يكون "العائلة" التي تفتخر بثوابت هويتها المبنية على الأخلاق الفاضلة، ومن هنا تتحقق شرعية الهوية الإسلامية.

3.3 النسق الوسيط وضبابية الأم: تقدم افتتاحية الرواية في رسمها لشخصية الأم بنية ثقافية لا تخرج عن الأطر الاجتماعية التي تسييرها العادات والتقاليد، فحضورها يشكل قيمة تتعلق بالصبر والتحمل من أجل أبنائها، وهو النسق العام للمرأة الجزائرية والعربية بصفة عامة حيث نحتت صورة الأم في المخيال العربي موازية لتحمل المشاق والقهر ورعاية الأبناء بصمت، وهو ما أعلنه الروائي بصورة واضحة في علاقة الطفل "غريب" بأمه، كان دوما "يخلص إلى صدر أمه ... حاولت حمايته فضمته إليها"¹³. وتستمر الصورة الضبابية للأم، فلا نكاد نعثر لها عن انتقاد أو رفض لسلوك أخيها المتسلط الذي فرقها عن زوجها المسلم "سعيد" عنوة، ولا الحديث عن توجهها الديني، يظهرها الروائي محبة لابنها حزينة لحزنه تسهر على تربيته وتبقى صامته أمام غطرسة أخيها، لا تحتج ولا تنثور، فقط اختيرت لها وظيفة تربية الطفل "غريب" بصمت تام، وهذه هي وظيفة المرأة في المجتمع العربي.

إنَّ الأم عند محمد جربوعة لا تعترض ولا تعبر ولكنها في مقاومة ومصابرة، احتاجت إلى الصمت كي تتمكن من تخطي سطوة الأخ، كون "العرف الثقافي يتأسس على رسم الحدود بين قدرات الأنثى وقدرات الذكر"¹⁴ المسيطر الذي لا يعلى عليه، فلا

مكان للاحتجاج أو المعارضة، وفي هذا الجو الاضطهادي يتعرّع ابنها "غريب"، فيصير كلاهما مضطهدا ومسحوقا من قبل الخال حيث لا ذنب لهما. وتتوالى مقاطع الرواية ويعرض الروائي فترة شباب "غريب"، فتظهر حقيقة الأم ليكشف ما تعانیه "داخليا"، تتذكر زوجها الذي تحن إليه لكنها لا تفصح عن ذلك، تعتصر ألما لفراقه لكنها لا تعترض، إنّه النسق الاجتماعي الراسخ والمسلم به حيث لا حق للمرأة من المواجهة والاعتراض ولا فرض الرأي، تدخل في حوار داخلي مع ذاتها، هذه "الأنا الداخلية" التي تتحدث إليها وتشاركها همومها هي التي تحمل عنها عبء الحرمان وقهر الآخر، هذه الذات الضائعة بين الأخ الذي استحوذ على حياتها، والزوج المتهم البريء الذي تحن إليه، دفعتها للولوج إلى عوالم لا تعي فيها ذاتها ولا تستطيع أن تتحكم فيها لأنّ الواقع الذي تستفيق فيه واقع مؤلم بقبضته الموحشة، يطفئ ذاتها ويجعلها في خواء، فتجوب الماضي علها تحصل على لحظة سعادة، ذلك الماضي الجميل هو من يخلصها من توتر الحاضر الذي يحاصرها بلا رحمة، فيتأسس نسق الاتصال بكل ما هو جميل في لحظة الاقتران ببوابة الماضي والهروب من الواقع المؤلم.

ويستمر صراعها داخليا دون رحمة، فتكتفي بذرف الدموع فقط: "وبكت ... ثم مشت إلى مرآة خزانتها، وضعت سبابتها عليها كتبت اسمه (سعيد) وهوت على المرأة تضربها بقبضتها وهي تعود إلى البكاء"¹⁵، لم تكن تريد الافتراق عن زوجها المسلم، لكن الأخ المتسلط يجبرها على ذلك، فتصمت ولا تبدي معارضة له، يحجب عنها ذاتها ويقرّر مصيرها، لكنها تبقى على أمل أن تحتضن ابنها وزوجها في بيت واحد، إنّه نسق الذكر القامع المتعالي أمام أنثى مهمشة ومحطمة لم تستطع قول "لا".

وتمثل الأم من جهة أخرى الوسيط بين الأب والابن، وهذه الوساطة هي التي تعزّز هويته، فهي تحكي لابنها عن عظمة أبيه الذي يجعله نموذجا يستعير منه مقومات بناء ذاته، وبه يحقق وجوده في المجتمع والهروب من بطش الخال، وفي هذا المنحنى

تظهر فاعلية الذات الأنثوية، فرغم أنّ بنيتها تبدو ضعيفة ومفكّكة، إلا أنّ وظيفتها قوية،¹⁶ فالأم حافظت على توازن شخصية ابنها وبنت له عالما براقا لم ير فيه أباه إلا نموذجا للذات الفحلة: "كان كبيرا تتمنى إلهات الإغريق واليونان الأسطورية لو أدركنه"،¹⁷ بهذه العبارات شبت شخصية الابن فكان صورة من أبيه.

4.3 النسق الايديولوجي: إنّ الحديث عن الهوية الإسلامية يجرنا قسرا إلى الحديث عن التناحرات الدينية التي يشهدها العالم، فالمجازر التي تطل علينا من نشرات الأخبار، كما يحدث في بورما وما حدث في البوسنة والهرسك، كانت تصفيات دينية خضعت لها الذوات البشرية على مر العقود، والرواية تأكيد على تأزم الصراع وبلوغه مبلغ الإكراه المادي وفرض السيطرة، فالأب قد سجن "لا لشيء إلا لأنه قال: إنّ الله موجود في السماء وإنّ ظله يجب أن يكون في الأرض"،¹⁸ واختار السجن بدل الرجوع عن دينه، وعند خروجه فرّ من الوطن الذي لم يستطع التعايش فيه إلى سويسرا، حيث قضى إحدى عشرة سنة بعيدا عن ابنه وزوجته، وهنا يبرز تصدع الذات داخل الوطن الذي لم يشعر بالانتماء إليه لأنه يحاول أن يسلبه هويته الدينية، هذه الهوية التي استطاع أن يحافظ عليها وهو بعيد عن وطنه. ولعل ما يلفت نظر القارئ أنّه ثمة مفارقة بين حياة الأب في الوطن وحياته في سويسرا، ففي الوقت الذي يجب أن يشعر فيه الفرد بالطمأنينة في وطنه وهو يمارس حياته الفكرية والدينية، نجد كل هذا مجرد وهم عند الأب، لقد قادت التناقضات السياسية والدينية إلى فرض حصارها عليه وسلبه حقه الطبيعي، لذلك اختار بلدا أجنبيا وهو سويسرا الذي احتضنه وبنى فيه أحلامه، وفي هذه المفارقة تظهر حدة الصراع وتتوسع الأزمة الهويةية.

ينبثق من تقابل المكانين الوطن/ وسويسرا، دلالات عميقة للذات لأنها فضاءان لتشكل الهوية، فسويسرا حاضنة لثبات ذات الأب وضمان المسار الوجودي له، في الوقت الذي يمثل الوطن محطة سحقه، يذكره بالسجن مكان هوة الضياع والمتهاة التي كان ينزلق فيها في محاولة سلبه لهويته الدينية بعدما سلبت منه أسرته، فأصبح وطنه

مأساة وجوده، زرع فيه الخيبة والانكسار لذلك غادره معباً بالجراح والهزائم، لكنه وهو هناك في وطن غير وطنه وفي أرض ليست بأرضه، يشعر بالاغتراب وتتملكه وحشة الانتظار ويختزن عواطف حبه وشوقه لعائلته، فترسم صورة لتشتت الذات وتفككها وصراعها مع الواقع الأليم بكل ظروفه المريرة، تلك هي أزمة الإنسان مع غيره وهو يتمسك بهويته الدينية، ويبني وجوديته ويجرّ خيباته في محاوله ترسيخ قدمه على الاستمرار وبناء تاريخه وهويته.

لقد عاد الأب إلى الوطن بشموخه المعتاد وبشاعريته التي أحبها كل الناس، وهو وعي منه بذاته التي لن تكون إلا كما يشاء: "شاعر إسلامي ملتزم"¹⁹، قدم إلى الوطن ليلقي أمسياته الشعرية التي تحمل عبق الحياة وما تجود به من أحلام، فالجرائد أثنت على هذا الشاعر المهاجر وما يحمله في قلبه من حب الوطن بشجره ومدنه وناسه، فـ "روح الوطن لم تتغير"²⁰ في ثنانيا روحه، إنه رمز وجوده وتمسكه بعائلته وعلامة على الانتماء الحضاري، وخيط من وهج الحياة الذي يدعوه للاستمرار والنبات. استطاع الروائي أن يهشم السرد بتأثيره بأنساق شعرية لها فاعليتها، وهو خروج متعمد من قبل الروائي، مكنته من الحصول على تقرد متميز من خلال إبهار المتلقي ودمجه مع فضاءات أخرى، وهنا يتم تمرير أخطر الأنساق - عبر الشعر - كما يقرّ الغدامي، لأنّه "يفعل فعله مثلما يفعل المجاز"²¹، فيحاول الشاعر أن يبين مدى قهر الذات وتعاستها لا لسبب سوى لممارستها لدينها:

ماذا جنيت؟ أبالإسلام تأخذني؟

ماذا أقمت؟ أغير الحق والسنن؟

ماذا فعلت؟ وللمظلوم حجتة

يوم القيامة ... ماذا سيد المدن؟

باق أسائل كل الأرض عدّ بني

ظلم القرابة ... آه منك يا زمّني²²

ومن هنا يكون الشعر مخزن الذات لتمرير نسقها لما يضمّره، فقد استطاع الروائي عبر المقاطع الشعرية، الإغلاء من شأن الذات ونقل المركز لها حتى تبدو مظلومة، ومنه يقصي الآخر الذي يعارضها ويتسلط عليها فيصبح هامشا، ولعبة هذا الصراع عبر الشعر، يكشف سطوة الأنساق وهيمنتها الثقافية، فظاهريا يبدو الأب مقهورا ومظلوما، لكن باطنا يكرّس للمعارضة وإزاحة الآخر والدفاع عن الدين الإسلامي.

يحيلنا هذا، إلى أنّ الروائي يحاول أن يقدّم صورة الأتقي والأصديق لمفهوم الهوية الإسلامية، لما يشعّرها من حرقة الأب وظلمه، وبهذا يصطنع معبرا للتأكيد على شرعية الهوية الإسلامية المبنية على القيم الأخلاقية، والتي يتوق إليها الفرد مهما كانت ديانته ومكانته، ويمثّل الإسلام بتعاليمه السمحة المنظومة الشرعية التي يجب أن تقبل، فبذلك يدافع عن الإسلام، ويبعد عنه الدونية خاصة مع انتشار الصورة المغلوطة التي قدّمت عن الإسلام والمسلمين في الفكر الغربي، واستيلائها الطاغوي على عقول الناس والتي كرّست النظرة المرتابة والعدائية لكل ما هو إسلامي، ومن هنا كان التعصب الديني.

3-5- النسق المتطرف /الخال: يعد التعصب الديني من أخطر أنواع التطرف وأكثرها همجية، لذلك كان النسق المسيطر في الرواية، فقد استفحلت في العالم السلوكيات المتطرفة التي تصوّر الآخر على أنه ذات ناقصة لأنه يخالف غيره دينيا، وهو ما قاد إلى صراعات لا متناهية زعزعت النسيج الاجتماعي وشتتت الأفراد، ويتضح هذا من خلال شخصية الخال الذي يمثل بؤرة الصراعات، ليس بسبب إعلانه للكفر والإلحاد، ولكن بسبب موقفه العدائي للإسلام وعلاقته بأخته وابنها وفرض تسلطه عليهما وإجبارهما على ترك دينهما، وكذا سياسة القمع والترهيب التي يمارسها ضدهما، يشعر بالارتياح وهو "يباهي ... بفقهه الإلحادي للإسلام"²³، ويبلغ به الأمر إلى تعليمه فنون الكفر للصبي، لم يذكر الروائي أي تفاصيل عن مركزه ولا مهنته، لكنه اكتفى فقط بالإشارة إلى سلوكياته المتطرفة، لأنه لا تهمه الشخصية بقدر ما يهمه فهم آليات التفكير

في الآخر المختلف، وهو ما يؤكد أزمة الذات في مواجهتها للآخر، فقد ظهرت شخصية الخال بصورة المتسلط الذي يقصي كل من يخالفه حتى وإن كان صبيا لا يعي ما حوله.

ثم ينتقل الروائي من إبراز التطرف الفكري إلى تيمة الانتهاك الجسدي، فقد "بلغت فتنة خاله له مبلغا جعله يوعز إلى أحد معارفه من الضباط أن يستدعي الفتى ليحبسه يومين أو ثلاثة عله يترك أفكاره المختلفة، بعد أن لم ينجح معه غير ذلك من وسائل الترهيب"²⁴، وهنا يبرز النسق التخريبي من قبل الأنا في محاولة فرض سطوتها على الآخر، ويتسع مجال الضغط والأسلبة ليشمل الجانب الإيديولوجي، فتدخل الضابط لسجن "غريب" بدون ذنب صورة حية لهيمنة الإيديولوجيا على الواقع الاجتماعي، ومن ثم تأثيرها في تشكل البنى الفكرية والعقلية للأفراد، وهو ما نقل الصراع من المؤسسة العسكرية إلى جوانب الحياة الاجتماعية من خلال استمرار التناحر بين الأطراف المختلفة، فقد "خدم الضابط صديقه ونزل عند رغبته متفضلا وزيادة فقد جعل اليومين أسبوعا"²⁵ لكن "غريب" لم يتراجع عن دينه بل "كان مطمئنا... لأنه اختار طريق الله"²⁶. إنَّ الصراع في الرواية لا يبدو من جهة واحدة، بل ينتقل إلى جهات متعدّدة، فالضابط العسكري الذي سجن الأب وابنه ظلما، يمثل وجها للهيمنة الإيديولوجية، وفيه من التعصب الشديد ما يبقي هذه الأطراف كثيرة وخفية تبرز ثقافة التسلط والإكراه.

هذه إذن علاقة الأنا بالآخر، صراع بين إخوة في الأرض والوطن، مثقلة بالدموع والآلام والكره، لكن الروائي يبرع لينهي الرواية بانتصار الهوية الإسلامية، لتتغلغل الأنساق التي تؤسس للسلوكات الإنسانية المبنية على الحرية والتفهم وتغرسها في وجداننا.

4- خاتمة: قدمت الرواية صورة عن الصراعات البشرية في ظل اختلاف بعضها عن بعض دينيا وإيديولوجيا، وهي صورة عن أزمة الإنسان في وطنه وسحق الآخر له، ما خلق صراعا وأسلبة للهوية، ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها:

- قدّمت الروايات المعاصرة تمثّلات جديدة لكل من الأنا والآخر، فلم يعد الآخر يقتصر على الأجنبي أو المسيحي، ومن يختلف معه في العرق أو الجنس، وإنّما هو اختلاف ثقافي وحضاري وديني، أثر على المنظومة الفكرية والاجتماعية، وكشف عن التعصب الذي يمثل الأرض الخصبة للصراعات.

- جمعت الرواية الواقع الاجتماعي والسياسي وعلاقتها بالدين، لتقدم لنا صورة عن الصراعات البشرية في ظل اختلاف الذات مع الآخر، وهو صورة عن أزمة الإنسان في وطنه وسحق الآخر وظلمه له نظرا لاختلافه معه في الدين .

- شكلت الهوية الدينية حقل الصراع بين الذات والآخر، بين المركز والهامش وفق علاقة متضادة كشفت سلبية التفكير البشري في تواصله مع الغير .

- يمثل "رفض الآخر" النسق المسيطر في الرواية، وهو رفض للدين الإسلامي، ومحاربته بكل الأساليب نظرا للصورة المشوّهة التي انتشرت عن مفهوم الإسلام وتعاليمه.

- الرواية انتصار للقيم الثقافية التي تكرّس النظام الأبوي باعتباره مركز الوجود، لذلك يؤكّد الروائي على هيمنة نسقه بكل أشكاله ويجعله في أعلى الهرم، فلا يمكن تجاوزه أو مواجهته.

- تركز الرواية منظومة القيم الدينية علامةً نسقية، فقد اختار الروائي للذوات الإسلامية صفات الوقار والقداسة كما مثّله شخصية الأب والابن، واصطفى للآخر المختلف "الخال" وعائلته صفات الانتقاص والسلبية.

- إنّ الوعي والإحساس بعمق الهوية الإسلامية قائم على مبدأ ثبات الذات وإدراكها لوجودها، فالرواية تؤكد في مسارها أنّ الهوية الإسلامية التي يتساوى التمسك بها مع القبض على الجمر، استمرت لمئاته الثوابت التي انبنت عليها.

- يثير الروائي إشكالية الاندماج مع الآخر المختلف دينيا كما هو "الخال"، كونه يحمل في مخيلته صورة نمطية عن الدين الإسلامي ويربطه بكل ما هو سلبى.

- الطابع العدائي بين الذات والآخر ليس مظهرًا مرتبطًا بالأشخاص، بل تشكّل العقيدة الأصولية بؤرة الغليان ومكمن الصراع، حيث يمثّل التطرف الديني الإشكالية التي تعاني منها المجتمعات البشرية فكثير من التناحرات كانت بسبب التطرف الديني.
- تشكّل سيطرة الذكر محورًا رئيسيًا لقهر المرأة وابنها وقمع حريتهما في الممارسة الدينية والاجتماعية، وحيث الأنثى لا تتجاوز سلطة النظام الذكوري ولا يمكنها الاستقلال عنه.
- تحولت الذوات المقهورة إلى أيقونة للصمت والصبر والتحمل، حيث يمارس الآخر سلطته وهيمنته، وفي ظل هذا الصراع تتجلى عمق الهوية الدينية الإسلامية.
- تتشكل الهوية الإسلامية في الرواية وفق مسار يكسبها قوة وشرعية، فقد صوّر الروائي الذوات الإسلامية كعناصر نقية، بنيتها ثابتة لا تتزعزع ولا تتحول، وهذه الصفات هي التي حمّتها من التلاشي رغم التسلط والألم الذي عانت منه.
- التواصل والحوار مقصد شرعي وضرورة ملحة للمحافظة على الهوية الدينية وضمان التعايش والاستمرارية.

5- قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المعاجم

- معجم المعاني الجامع نقلاً عن الانترنت www.almaany.com

ثانياً: المصادر

- محمد جربوعة، غريب، ط1، دار اليقين، جدة، السعودية 2003.

ثالثاً: المراجع

1. جمعة مصطفى عطية، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، ط1، الوراق للنشر والتوزيع، عمان 2011.
2. عبد النور إدريس، النقد الأدبي النسائي والنوع الاجتماعي (الجنس) تمثيلات الجسد الأنثوي في الكتابة النسائية، ط1، سلسلة دفاتر الاختلاف، المغرب 2011.

3. عبد الله محمد الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية الدار البيضاء، 2005.
 4. عبد الله محمد الغدامي، المرأة واللغة، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006.
 5. ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2002.
- الهوامش والإحالات.

-
- ¹ مصطفى عطية جمعة، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، ط1، الوراق للنشر والتوزيع، عمان 2011، ص34.
 - ² ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2002، ص23.
 - ³ ينظر: ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ، ج1، ص640.

- ⁴ محمد جريوة، غريب، ط1، دار اليقين، جدة، السعودية 2003، ص13.

⁵ المصدر نفسه، ص15.

⁶ المصدر نفسه، ص12.

⁷ المصدر نفسه، ص14.

⁸ المصدر نفسه، ص22.

⁹ المصدر نفسه، ص13.

¹⁰ المصدر نفسه، ص17.

¹¹ المصدر نفسه، ص19.

¹² المصدر نفسه، ص17.

¹³ المصدر نفسه، ص11.

- ¹⁴ عبد الله محمد الغدامي، المرأة واللغة، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، ص225..
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص35.
- ¹⁶ ينظر: عبد النور إدريس، النقد الأدبي النسائي والنوع الاجتماعي (الجنس) تمثيلات الجسد الأنثوي في الكتابة النسائية، ط1، سلسلة دفاتر الاختلاف، المغرب، 2011، ص135.
- ¹⁷ محمد جربوعة، غريب، ص33.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص15.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص30.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص39.
- ²¹ عبد الله محمد الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي، المملكة المغربية الدار البيضاء، 2005، ص198.
- ²² محمد جربوعة، غريب، ص40.
- ²³ المصدر نفسه، ص17.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص21.
- ²⁵ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص22.